كتاب روزبري عن نبوليون

(٤) مسألة المال

قال اللورد روزبري "انا اطلنا الكلام في مسألة اللقب لانها اصل كل الشرور فننتقل منها الى المسألة المالية وهي لحسن الحظ عرضية ولعلها كانت تابعة لمسألة اللقب كأن الوزارة الانكليزية قالت في نفسها انها ان ابقت لنبوليون لقب امبراطور اضطرت ان تنفق عليه نفقات طائلة ليقوم بمقتضيات ذلك اللقب ولكن كانت الحرب كثيرة النفقات فيجب ان يكون الاسير قليلها لاسيما انها كانت تنفق على السرهدسن لوا ثني عشر الف جنيه في السنة فجعلت نفقات نبوليون وحاشيته وعددها واحد وخمسون نفسا ثمانية الآف جنيه في السنة وقالت ان احتاج الى اكثر فلينفق من جيبه. ولقد كان ينفق من جيبه لان نفقاته بلغت ١٨٠٠٠ او ١٩٠٠٠ جنيه في السنة هذا مع الاقتصاد الشديد لغلاء كل شيء في تلك الجزيرة فان ثمن الاشياء فيها كان اربعة اضعاف ما هو في غيرها. ولما رأى لورغلاء الاسعار جعل نفقات نبوليون مثل نفقاته اي ١٢٠٠٠ جنيه في السنة وهو في ذلك أكرم من رئيسيه لورد بثرست وزير الحربية والمستعمرات لان لورد بثرست امره ان لا يدفع من نفقات نبوليون سوى ٨٠٠٠ جنيه في السنة. وبلغ نبوليون ذلك فقال ليفعل ما يشاء بشرط ان لا يكلفني في هذا الموضوع. لانه كان يخشى ان يصل الخبر الى اوربا فيعود بالعار على فرنسا. وكان يفعل هناك كما كان يفعل وهو على سرير الملك اي انه كان يستدعي وكيل الخرج اليه ويطلع على حسابه بالتدقيق ويقلل النفقات جهده ولكنه لم يشأ ان يتذاكر في هذا الموضوع مع سجانه

وزار نبوليون المائدة التي كان يأكل عليها اتباعه فرأى الطعام قليلاً لا يقوم بهم ولعلهم فعلوا ذلك قصداً فامر وكيل الخرج ان يبيع ما عنده من الآنية الفضية فباع جانباً منها ولو نفسه حدد الثمن الذي يبعت به. وقدم الطعام الى نبوليون في صحاف من الخزف فاعتراه الخجل وعاف الاكل الا ان وكيل الخرج كان قد خالف امر مولاه ولم يبع كل الصحاف بل ابقى جانباً منها فاتاه بالطعام فيها في اليوم التالي فسر بذلك واكل على جاري عادته

ويقال انه لما بيعت آنية نبوليون اوجس لو شرًا وندم على ما فعل لانه خاف من ملامة الناس له"

قال لورد روزبري" ان كل ما حدث كان من قبيل المغايظة فان نبوليون لم يكن مضطرًا ان يبيع اناءه واحداً لانه كان له اموال طائلة في باريس وفي جزيرة القديسة هيلانة نفسها

ومع ذلك لا نلومهُ على ما فعل لانهُ حارب خصومهُ بسلاحهم على اسلوب نُجِدُ فيهِ الانظار اليهِ فان يمهُ لآنيتهِ الفضية لابد من ان يشيع في الجزيرة كلها وتنتقل اخبارهُ الى اوربا فيشدد الناس النكير على الحكومة الانكليزية وقد نجح في ذلك. وحدث بعد هذا ان قلَّ الوقود عندهُ فامر خادمهُ ان يكسر سريرهُ ويوقدهُ وشاع الخبر في الجزيرة حالاً فأُسقط في يد لو وصار يتجنب مفاضبة نبوليون

"وكان نبوليون واسع الحيلة يلجأُ الى هذه الطفائف حينما تدعو الحال اليها مثل غيرهِ من عظام الرجال فكان مثلاً يسرُّ بكتابة مكاتيبهِ من قصور الملوك الذين غلبهم. ويدرس تواريخ بعض قوادهِ ثم يقابلهم وهم في اماكنهم في الجيش ويسميهم باسمائهم ويذكرهم بما فعلوا فيبتهجون بذلك. وكان في حروبهِ يشيع ان الدائرة دارت عليهِ حتى اذا بلغت الاشاعة وزراءهُ وتولاهم القنوط فاجأهم باخبار النصر مفاجأةً. ولما كان في موسكو يحيط بهِ النار والجوع ويتهدَّدهُ البرد والصقيع بعث الى فرنسا كتابة مسهبة عن اصلاح التياترو الفرنسوي لكي يقنع رجالهُ انهُ غير مبالٍ بما هو فيهِ ويقنع فرنسا انهُ يدبر امور المملكة صغيرها وكبيرها وهو في حومة الوغى"

وذكر لورد روزبري حديثاً لنبوليون مع الدكتور اوميرا الانكليزي ورجح صحتهُ وهو قول نبوليون لهُ "ان وزراءكم ارادوا ان ينسى الناس اسمي فاذكروهم بهِ بجهلهم المتن وسوء تصرفهم ولو عقلوا لاباحوا لي ولرجالي ان ننفق قدر ما نشاء فاسكتونا واسكتوا الناس اجمع ولم تزد نفقاتنا على ١٦٠٠٠ او ١٧٠٠٠ جنيه في السنة". وطلب بعض الكتب التاريخية فارسلتها الحكومة الانكليزية اليهِ وحاسبتهُ بثمنها فلم يشأ ان يدفعهُ ثم لما توفي استردتها وباعتها بثمن بخس ولو ابقتها لربحت منها ربحاً وافراً لان عليها كثيراً من الحواشي بخطهِ

(٥) تسليمهُ واسرهُ

قال نبوليون وهو في معركة استرلتز الشهيرة "ان الانسان لا يستطيع الحرب الاَّ سنين قليلة فانا لا استطيعها الاَّ ست سنوات اخرى ثم اضطرُّ ان اتنحى عنها". ومن الغريب ان الايام حققت صدق هذا القول فبعد واقعة استرلتز بست سنوات وشهر واحد اعلن الحرب على الروس فآب بالفشل واخذ نجم سعدهِ في الافول من ذلك الحين حتى ظن اعوانهُ انهُ اعتراهُ مرض اضعف همتهُ وثبط عزيمتهُ. ومن المحقق انهُ اخذ يسمن وصار يكثر من الاكل والنوم. والظاهر ان السرطان الذي اماتهُ واماتَ اباهُ من قبلهِ شرع ينمو في معدتهِ فيهيجها لطلب الطعام فزاد اكلهُ وزاد سمنهُ فقلَّ ورود الدم الى دماغهِ وتوليد الافكار فيهِ. وهذا

امرٌ عاديٌ يصيب كل من كان عصبيًا نحيفًا . ثم سمن وترهّل وزاد سمنهُ وهو في جزيرة البا لانهُ انقطع فيها عن الاشغال الشاقة وعكف على الملاذ فاتخذ سمنهُ دليلاً على انكفاء مطامعهِ وضرب على بطنهِ بيديهِ في قصر التويلري وقال للذين حولهُ هل يبقى في الانسان مطامع بعد ان يصير سمينًا مثلي . وثبت لاعوانهِ ان همتهُ فترت وعضب دماغهِ كلّ عن المضاء فصاروا يتناجون في ذلك واصبحوا يجاهرون بهِ . وجعل وزراؤهُ يدخلون عليهِ فيجدونهُ نائمًا والكتاب في يدهِ بعد ان كان يبيت الليالي ساهرًا وهو على صهوة جوادهِ . وصار يكثر من الكلام ويفيض في الحديث كلما مل من الشغل العقلي كأنهُ يجد في الكلام راحة ونكاهةً . وبلغ من ضعف عزيمتهِ انهُ وهو في جزيرة البا انتبه الى خيانة وزيرهِ فوشه ولام نفسهُ لانهُ لم يقتلهُ لكنهُ ابقى عليهِ لما عاد الى باريس ولم يتلهُ بمكروه . وفوشه هذا هو الذي خدعهُ وخانهُ وسلمهُ للانكليز . وكان نبوليون يعلم ذلك ولكنهُ ابقاهُ رئيسًا لليوليس ولم يجسر على الاقتصاص منهُ

ولما استثقل متاعب الملك ودسائس الاعوان وضاق بها ذرعًا خرج بجندهِ للقتال لعلهُ يشفى من مرض الخمول مستشفيًا من داء بداء ولكنهُ فعل فعلَ المقامر الذي تتكرّر خسارتهُ وتضيق بهِ الدنيا فيخاطر بكل ما يملك دفعةً واحدة عساهُ ان يسترد ما خسرهُ او يبلغ حد الافلاس . ولم يبلغ ميدان القتال حتى خارت قواهُ فلم يعد يعبأُ بالبحث عن مواقع الاعداء ولا يهتم بسرعة الهجوم عليهم مع انهُ فاز في حروبهِ السابقة لاهتمامهِ بهذين الامرين . ولم تدر رحى الحرب حتى قال يظهر انهم اشتبكوا (Il paraît qu'ils sont mêlés) وادار راس جوادهِ وخرج من ساحة الوغى وهرب الى باريس لا يلوي على احد فوصل قصر الاليزه الساعة السادسة صباحًا (في الحادي والعشرين من شهر يونيو) وقال " ان الجيش فعل فعال الابطال ولكن تولاهُ الاضطراب . وبلغ الجنون من ناي انهُ فادى بالفرسان " . ثم ارتمى في حمام من الماء السخن واستدعى وزراءهُ

ورآهُ لا قالت ذلك الصباح ووصف كيف قابلهُ قائلاً حالما رآني بادر اليّ وهو يضحك كالمجانين ويقول يا لهي يا لهي ويرفع عينيهِ الى السماء ويمشي حول جدران الغرفة ثم لم تلبث هذه النوبة ان فارقتهُ فثاب اليهِ رشدهُ وسألني عمّا هو جارٍ في مجلس النواب . وكان يجب عليهِ ان يبادر الى المجلس قبلما يخلع ثيابهُ ويسحرهُ ببلاغة خطابهِ ويأمر بقتل فوشه لانهُ سبب هذه البلية ولكنهُ لم يفعل ذلك بل عقد مجلسهُ الخاص وفوشه يحرّض حزب المعارضين على مقاومتهِ واعوانهُ وذوو قرباهُ يتوسلّون اليهِ ليبدي شيئًا من حزمهِ السابق وهو صامت لا يتكلم . وجعل المعارضون والخائنون والمتآمرون يلّون شملهم ويجاهرون بمقاومتهِ وهو جالس لا يبدي

ولا يعيد وقد فرغت حيلتهُ وفارقتهُ عزيمتهُ . مركبتهُ واقفة على الباب لتسير بهِ الى مجلس النواب وهو جالس في مكانهِ لا يتحرَّك . واخيرًا قدِّمت اليهِ ورقة التنازل عن الملك فامضاها بيدهِ وهو كأنهُ في بحران . فعل ذلك والجنود خارج القصر والشعب كلهُ يناديهِ لكي لا يتركهُ وهو لو قال كلمة واحدة لاستراح من خصومهِ كلهم في ساعة من الزمان او لأحدث في البلاد ثورة كالثورة المشهورة ولكنهُ لم يقل كلمة ولا فعل شيئًا بل ارسل مركبتهُ بين الجموع فارغة وخرج في مركبة اخرى الى قصر مالمازون Malmaison وجلس هناك يقرأ الروايات غير مهتم بالدفاع ولا بالهرب . واخيرًا عرض خدمتهُ على الحكومة الموقتة كجنرال فرفضت طلبهُ وامرتهُ بالخروج من البلاد فاطاع وخرج في ربع ساعة ووصل الى روشفور واقام فيها وهو لا يزال في بحرانهِ لا يعي على شيء . وعرض عليهِ اخوهُ يوسف ان يهرب الى اميركا في سفينة اميركية كانت هناك وكان ذلك ميسورًا لهُ فلم يفعل . وعرض عليهِ الهرب في سفينة هولندية فلم يقبل وكان هناك بارجتان فرنسويتان فعرضتا عليهِ ان يهرب في واحدة منهما وتبقى الاخرى تشغل السفينة الانكليزية عنها لكنهُ لم يفعل شيئًا من ذلك بل سلَّم نفسهُ للانكليز وجلس على ظهر سفينتهم يقرأ في اوسيان Ossian وسارت بهِ السفينة وهو في بحرانهِ الى ان قابلت اوسنت فخرج من غرفتهِ ونظارة في يدهِ ووقف ينظر الى سواحل فرنسا من الساعة السابعة صباحًا الى الظهر اي الى ان غابت تلك السواحل عن نظرهِ فعاد الى غرفتهِ متكئًا على ذراع برتران وهو شاحب الوجه صامت لا يتكلَّم وعاودتهُ نوبات الخمول كل مدة اقامتهِ في جزيرة القديسة هيلانة فكان يقيم ساعات متوالية في فراشهِ او في حمامهِ ولم يعد يلبس ثياب النهار الاَّ بعد الظهر . ومع ذلك كانت الوزارة الانكليزية ونائبها السر هدسن لو في قلق دائم لئلاَّ يهرب من تلك الجزيرة و يقيم الدنيا عليها

وقد اختار الانكليز هذه الجزيرة لانها ابعد الجزائر عن اوربا واقفرها وحصَّنوها حتى صارت امنع من عقاب الجو وظلَّ السر هدسن لو يزيد في تحصينها ووضع المدافع فيها الى وفاة نبوليون مع انهُ قال للوزير كاسلراي قبل مغادرتهِ لندن انهُ لا يرى سبيلاً لهرب نبوليون من تلك الجزيرة الاَّ بخيانة حاميتها

والجزيرة صخر كبير مستدير في وسطهِ سهل بنيت فيهِ مدينة اسمها لنغوود يكتنفهُ خندق عميق يفصلهُ عما حولهُ ولا يوصل اليهِ الاَّ من طريق ضيق عرضهُ اقل من عشرين قدمًا وهو شديد التحدُّر حتى اذا دخل الجزيرة عشرة آلاف جندي فخمسون جنديًّا يكفون لمنعهم من الوصول الى مدينة لنغوود ولا يوصل اليها الاَّ بهِ . وهناك آلاي من الجيش وفرقة من المدفعية .

والحراس يحيطون بالمدينة من كل ناحية ويزيد عددهم ليلاً حتى يصيروا حلقة متصلة حول المدينة وهناك سفينتان حربيتان تطوفان حول الجزيرة نهاراً وليلاً وبارجتان في المرفأين اللذين يمكن ان ينزل منهما الى السفن والحراس على كل قمة من قممها يرون كل سفينة آتية اليها عن بعد ستين ميلاً وكلما رأوا سفينة اطلقوا مدفعاً فانتبه الحرّاس والجنود والسفن الحربية. ولم يكن يسمح لسفينة اجنبية ان تدنو من تلك الجزيرة مهما كانت ولا لسفينة انكليزية الاّ اذا كانت من السفن الحربية او سفينة مخصوصة آتية بالمؤونة والميرة للحراس. ومهما كان نوعها لا يسمح لها ان تخابر احداً في الجزيرة لاي سبب كان

ومع هذا الاحتراس والتضييق لم يكن يسمح لنبوليون ان يخطو خطوة في الجزيرة الاّ ووراءهُ حارس انكليزي. واتفق مرةً انهُ خرج راكباً وخرج معهُ برتران وغورغو فتبعهم هذا الحارس وكان اسمهُ بوبلتون وطلب اليهِ برتران ان لا يدنو منهم كثيراً فابى وفيما هو يكلمهُ عدا نبوليون بجواده وتبعهُ غورغو ولم يكن بوبلتون يحسن الركوب فلم يستطع ان يدركهما فاسرع الى الاميرال ككبرن امير البوارج الانكليزية الحارسة الجزيرة وشكا اليهِ امرهُ فضحك الاميرال منهُ ثم قال لهُ كن مطمئن البال ان بوارجي تكتنف الجزيرة حتى لو اراد الشيطان ان يخرج منها لتعذر عليهِ ذلك

ثم لما مرض نبوليون ولم يعد يخرج من غرفتهِ كثرت هواجس لو ووساوسهُ وخُيّل لهُ ان نبوليون هرب من لغفورد وتسلّق الصخور ولا يبعد ان تقابلهُ سفينة غواصة تسير تحت الماء فيهرب فيها فكتب اليهِ في ٢٩ اغسطس سنة ١٨١٩ يقول لهُ لا بُدَّ من ان يراك ضابط من الحراس كل يوم. وقد أُمر هذا الضابط ان يدوس كل الموانع التي تمنعهُ ذلك وانهُ اذا عارضهُ احد من حاشية نبوليون في اتمام مأموريتهِ أُخرج ذلك المعارض من الجزيرة حالاً وعُدَّ مسؤولاً عن كل ما ينتج من فعلهِ. وانهُ اذا لم يرَ ذلك الضابط نبوليون كل يوم حتى الساعة العاشرة صباحاً حق لهُ ان يدخل البيت الذي فيهِ نبوليون والغرفة التي هو فيها عنوةً. فاجابهُ نبوليون انهُ يفضل الموت على هذه الاهانة اي انهُ يقتل الضابط المشار اليهِ حالما يراهُ وكان ذلك في ٢٩ اغسطس. وفي ٤ سبتمبر اضطر لو ان يعدل عن عزمهِ ويستردّ اوامرهُ. وذاق الضابط الامرّين في مراقبة نبوليون فكان يوصوص من صائر الباب او من ثقب مفتاحهِ او من الكوة فيرى برنيطة نبوليون فيحكم انها على رأسهِ او يراهُ جالساً في حمّامهِ. ورآهُ نبوليون مرةً وهو يرقبهُ كذلك فتح الباب بغتةً وخرج اليهِ عارياً

وفي يومية هذا الرجل من المضحكات ما يعزّ نظيرهُ. كتب مرةً انهُ بقي ذات يوم اثنتي

عشرة ساعة واقفاً على قدميهِ قبلما استطاع ان يرى نبوليون. وكتب في يوم آخر انهُ بقي واقفاً عشر ساعات على قصب رجليهِ عرضةً لتهكم الخدم ولم يرَ نبوليون

الى هذا الحد بلغت الحماقة من الوالي حتى جعل ضباطهُ عرضةً للهزء والسخرية في قضاء امر لا داعي لهُ. ومن رأي اللورد روز بري انهُ لم يكن خوف من ان احداً يحاول انقاذ نبوليون لكن الاشاعات كانت كثيرة حينئذٍ عن عزم اناس على بناء سفينة تسير تحت الماء وتصل الى الجزيرة وتنقذ نبوليون منها وكان الوالي يضاعف الحرس كلما بلغتهُ اشاعة من هذه الاشاعات بل كانت الوزارة الانكليزية نفسها تقلق قلقاً شديداً لاشاعات مثل هذه وظلت في قلق الى ان ادركت نبوليون الوفاة. ويقال عن ثقة ان ربان احدى السفن عرض ان ينقذ نبوليون في قارب خلسة ويوصلهُ الى اميركا لكن نبوليون رفض ذلك رفضاً باتاً. وعُرضت عليهِ اساليب اخرى للنجاة فنظر اليها نظر الازدراء. نعم انهُ كان يود ان ينقذ من الاسر ولكنهُ كان يريد ان يحدث ذلك جهاراً بواسطة شريفة يأمن بها على حياتهِ بعد انقاذهِ واما لو هرب هرباً لتعقبهُ خصومهُ اين ذهب واوقعوا بهِ. والظاهر من قول منتلون ان نبوليون كان يعتقد بالقضاء والقدر ويقول ان كل شيء في كتاب مسطور وانهُ لا يموت الاَّ حيث قدر لهُ كأنهُ يردد قول الشاعر

ومن كانت منيتهُ بارضٍ فليس يموت في ارض سواها

وقال اخيراً لاتباعهِ بعد ان عرضوا عليهِ اساليب مختلفة للنجاة "خير لي ان اموت هنا شهيداً فان ذلك قد يعيد الملك الى ابني اذا بقي حياً". وقال مرةً ان فيهِ بارقة امل بالنجاة اذا قوي حزب المعارضين في البارلمنت الانكليزي وتبوأت الاميرة تشارلوط اريكة الملك. وقد حسب ان هذه الاميرة تميل اليهِ لانها تزوجت بالامير ليوبولد الذي ودَّ مرةً ان يكون ياوراً لهُ

ولم يكن قليل الاماني بل كثيراً ما كان يهجس بالمحال قيل انهُ امر قوَّاد جيشهِ وهو في حرب الروس ان يقودوا بعض الفيالق وهو يعلم انها فنيت ولما قالوا لهُ في ذلك قال لهم لماذا لا تدعونني أسرُّ باحلامي. ولما هاجمت جنود الاحلاف فرنسا قال للمرشال مكدونلد اني اعتمد على فيلقك فقال لهُ المرشال ألا تريد ان نستعرض هذا الفيلق فلا يأخذك استعراضهُ دقيقة لانهُ مؤلف مني ومن ياور واحد وكل ما عندنا اربعة كراسي قش وطاولة خشب ابيض. وفي معركة سنة ١٨١٤ كان يقول لمارمون اذهب برجالك العشرة الآلاف فقال لهُ مارمون انهم الآن ثلاثة آلاف فقط فلم يلتفت اليهِ بل ظلَّ يقول انهم عشرة آلاف. ومع كل ذلك كان لهُ

مهابة عظيمة في قلوب كل من في جزيرة القديسة هيلانة . قال المندوب الروسي "ان لهذا الرجل الخاضع المأسور المكتنف بالحرّاس والحفّاظ من السلطة على كل الذين يدنون منهُ ما يُعجب ويُدهش فان كل ما في هذه الجزيرة يدلُّ على تفوّق نبوليون وعظمتهِ . الفرنسويون يرتجفون من رؤيتهِ ويحسبون خدمتهُ منتهى السعادة . والانكليز لا يدنون منهُ الاَّ والرهبة تشملهم حتى حرّاسهُ يتمنون ان ينظر اليهم نظرةً او يكلمهم كلمة وما من احد يستطيع ان يلتفت اليهِ التفات النظير الى نظيرهِ" . وزد على ذلك انهُ كان يدخل اكواخ الاهالي ويجلس معهم ويكلم الخدم والعبيد ويفخمهم بالهدايا ولما رأى الوالي ذلك ضيَّق عليهِ النطاق لئلاَّ تتعلق قلوب السكان بهِ فيعصوا اوامر الحكومة

الزهد في الحياة

في قطيع نعجةٌ قد نتجت حملاً أبيض كالثلج النقي
رأمتهُ وسقتهُ لبناً فتقوّى ناميًا تمًّا سقي
شارفتهُ وعليهِ انعطفت حفظتهُ كسوادِ الحدقِ
عند ما أصبح شهرًا عمرهُ وعن المربضِ لم يفترقِ
جاءهُ الراعي ومعهُ مدية وبها ينوي احتزاز العنقِ
فدعاهُ مستغيثًا خاشعًا عند ما القاهُ فوق الطبقِ (١)
قائلاً مولايَ رفقًا انني في حياتي لذَّةً لم أذقِ
ما رعيتُ العشبَ بل مازلتُ من ضرعِ أمي من لبانٍ استقي
ما برحتُ السجن يومًا واحدًا ومع القطعان لم أنطلقِ
أُعفُ عني سنةً احيا بها مطمئنًا في سراح مطلقِ
لا يخاف الفوتُ مني وانا كل يومٍ عالق بالوهقِ (٢)
فاتقِ الرحمانَ في حقيَ او فاصنع الرحمة ان لم تتقِ

* * *

رفق الراعي بهِ وانطفأت جمرةٌ في طرفهِ المغرورقِ

(١) الطبق سطح الارض او ساعون مقعر من الخشب مثل الذي يضعهُ الجزّار تحت العنق ليجتمع فيهِ الدم
(٢) الوهق حبل في طرفهِ انشوطة يطرح على عنق الدابة لتوخذ بهِ